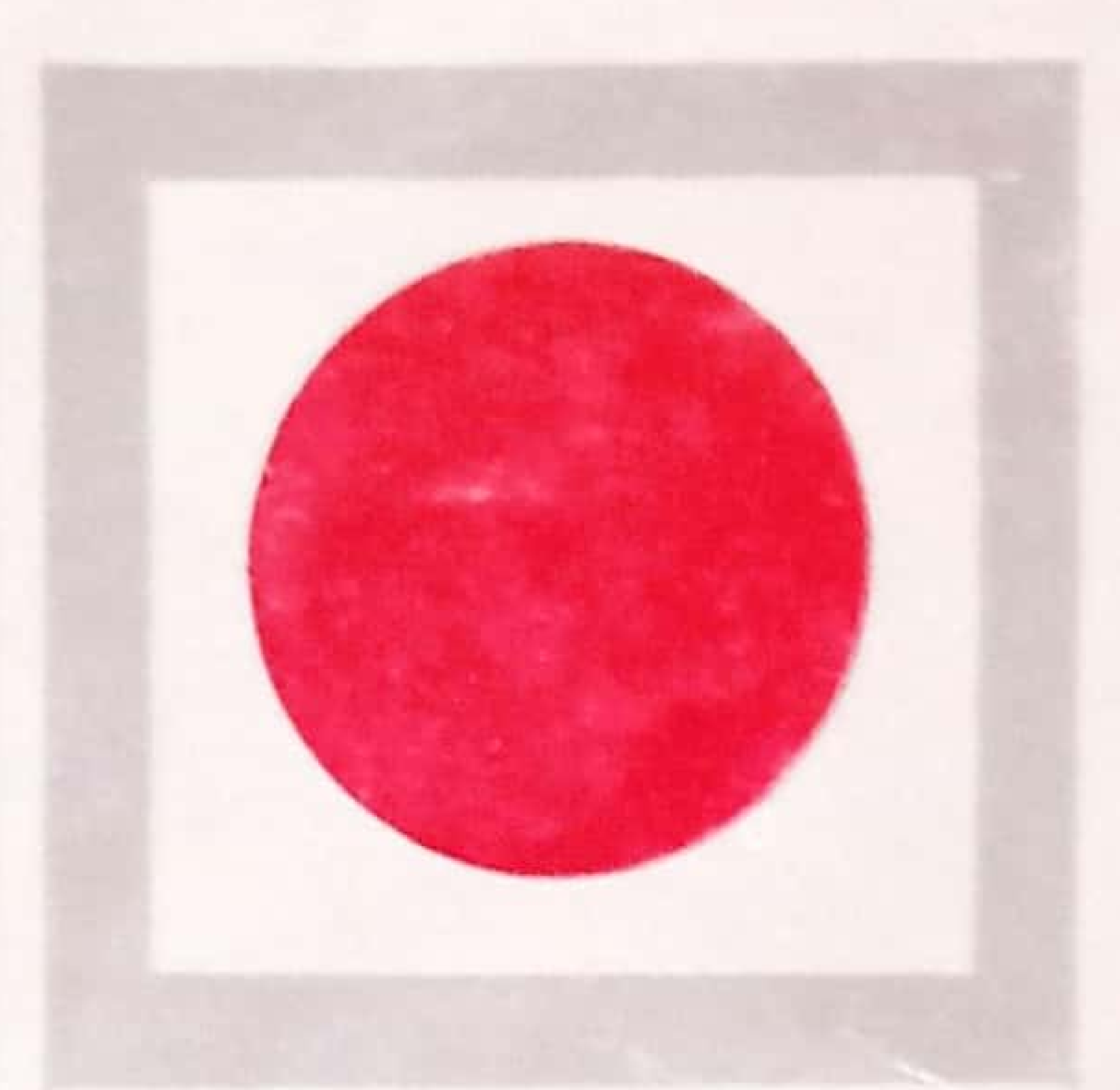




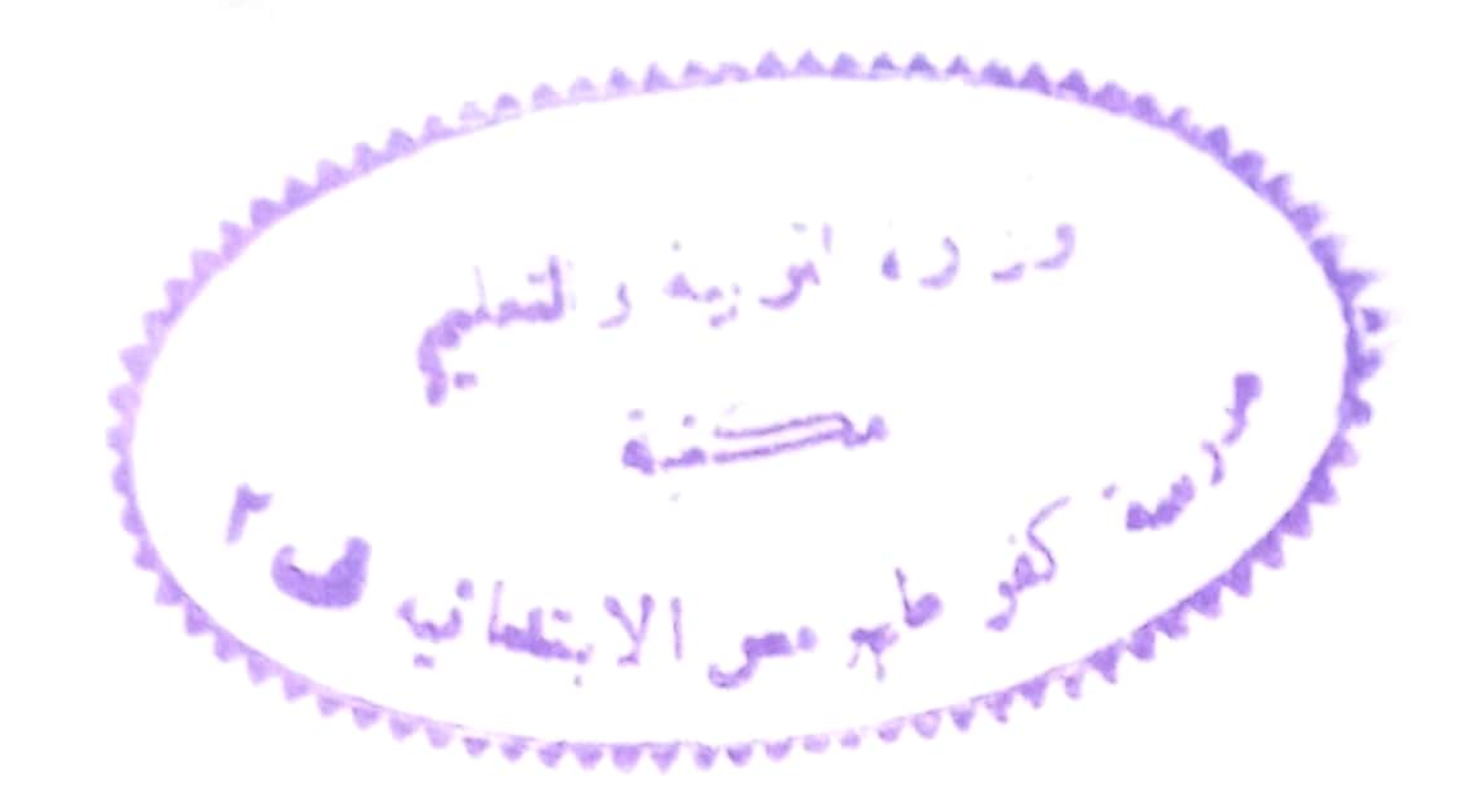
• ثقافة لجميع الأولاد •

الإمام السجين

أحمد بن حنبل

وصفى آل وصفى • بهى الدين سعد

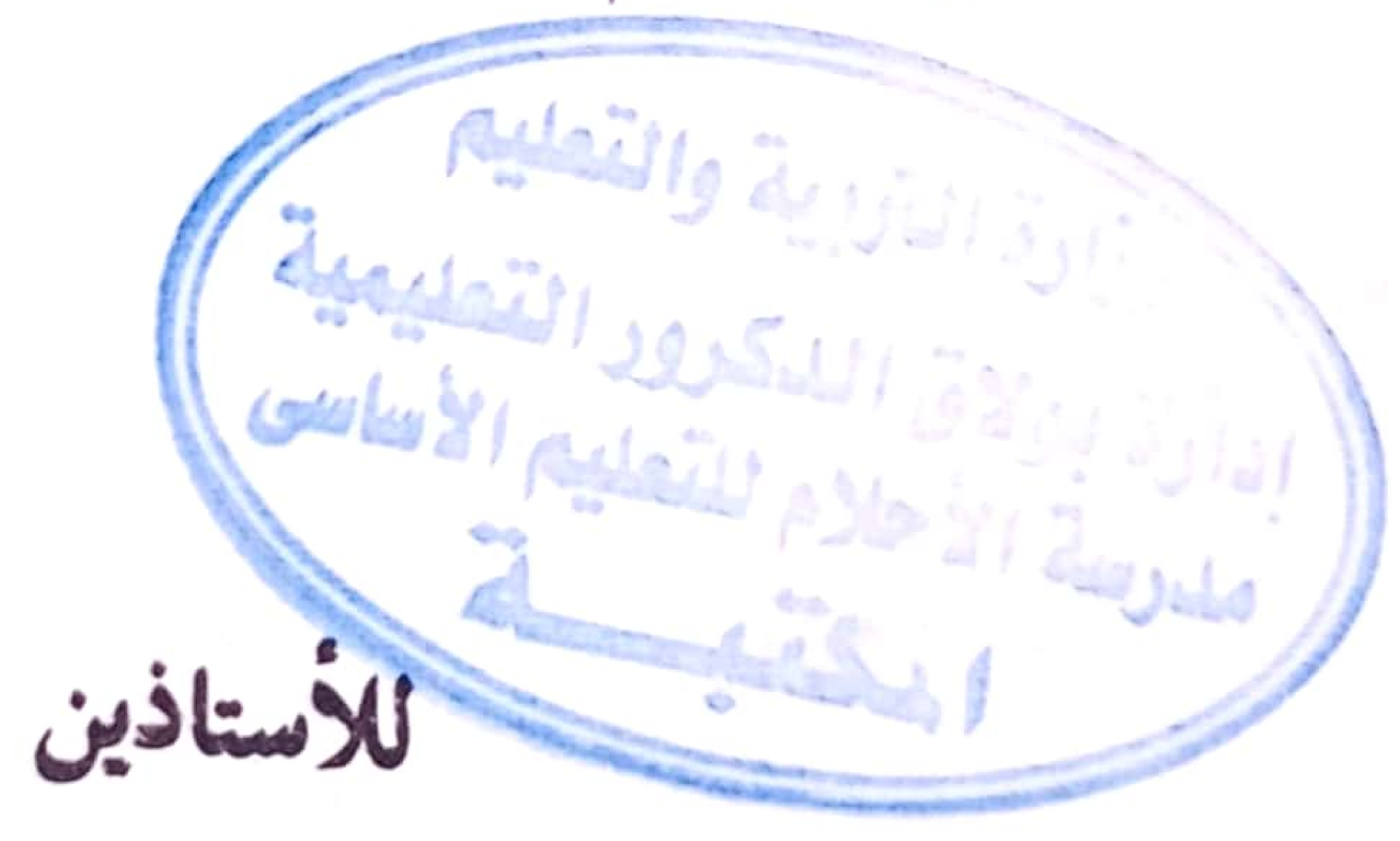




قُوّادُ ورُوّاد

الإمام السجين

الإمامُ أحمدُ بْنُ حَنْبَل



للأستاذين

وصفي آل وصفي بهي الدين سعد

نهضة مصر

(١)

اعْتَادَتْ أُسْرَتَا « عَرَبِى » وَ « عَلْيَاءَ » أَنْ تَلْتَقِيَا أَيَّامَ « رَمَضَانَ » الْمُعَظَّمِ فَتَسْهَرَا وَتَسْمُرَا ، وَاعْتَادَ عَرَبِى وَعَلْيَاءُ أَنْ يَتَبَادَلاَ الْحَدِيثَ فِى تِلْكَ اللِّقَاءَاتِ . . وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَجْتَهِدُ فِى أَنْ يَتَفَوَّقَ عَلَى الآخَرِ فِى جَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ . .

وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَتْ عَلْيَاءُ لِعَرَبِى وَهِىَ تُقَدِّمُ إِلَيْهِ مَجْمُوعَةَ أَوْرَاقٍ :

- مَا رَأْيُكَ فِى هَذِهِ الْمُذَكِّرَاتِ ، يَا بْنَ عَمِّى الْعَزِيزِ ؟

رَاحَ عَرَبِى يُقَلِّبُ الأَوْرَاقَ فَابْتَسَمَتْ عَلْيَاءُ وَقَالَتْ :

- الْخَطُّ وَاضِحٌ . . وَالْمَعْلُومَاتُ مُرَتَّبَةٌ . . وَالْمَوْضُوعُ لاَ يَقِلُّ عَنْ مَوْضُوعِكَ الَّذِى حَدَّثْتَنَا بِهِ أَخِيراً ! كَانَ حَدِيثُكَ عَنِ الإِمَامِ « مَالِكٍ » ، وَحَدِيثِى الْيَوْمَ عَنِ الإِمَامِ « ابْنِ حَنْبَلٍ » !

مَضَتْ لَحَظَاتٌ ثُمَّ بَدَا الاهْتِمَامُ عَلَى عَرَبِى ، وَالْتَفَتَ

(٢)

قَالَتْ علْيَاءُ :

١٦٤ من الهجرة

– فِى عَام أَرْبَعَةٍ وَسِتِّين ومِائَةٍ مِن الْهِجْرَةِ كَانَتْ « بَغْدَادُ » عَاصِمَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فى عَهْدِ الْعَبَّاسِيِّين مَدِينَةً عَظِيمَةً ، وَمَرْكَزاً لِنشَاطٍ تجَارِىٍّ كَبِيرٍ وَحركَةٍ عِلْمِيَّةٍ واسعة . وَكَانَتْ مساجِدُها عامِرَةً دائِماً ، تزدحِم بِالْمُصَلِّين فى أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ الْخَمسةِ . وبعدَ الصَّلَاةِ يجلِس عددٌ كَبِيرٌ مِن النَّاسِ حوْل الْعُلَماءِ يسْمعُونَ مِنْهُمْ ويسأَلُونَهُمْ فى أُمورِ دِينِهِمْ وفى كَثِيرٍ مِن أُمورِ دُنْيَاهُمْ . .

ولد في ربيع الاول عام ١٦٤هـ ببغداد

وفى شَهْرِ « رَبِيعِ الْأَوَّلِ » مِنْ ذَلِك الْعَامِ ، وُلِدَ بِمَدِينَةِ بَغْدَاد عالِمٌ عَظِيمٌ هو الْإِمَام أَحمدُ بْنُ حنبلٍ الشَّيْبَانِى . .

نَظَرَتْ عَلْيَاءُ إِلَى عَرَبِى ثُمَّ قَالَتْ وكَأَنَّمَا تُبَاهِى بِكَثْرَةِ مَعْلُومَاتِها :

- وَشَهْرُ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ هُوَ الشَّهْرُ الَّذِى وُلِدَ فِيهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم ، وَشَيْبَانُ الَّتِى يَنْتَسِبُ إِلَيْهَا ابْنُ حَنْبَلٍ قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ مَشْهُورَةٌ كَانَتْ لَهَا بُطُولَاتٌ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَتَحْتَ رَايَاتِ الْإِسْلَامِ أَيْضاً . .

وَضَحِكَ وَالِدُهَا فَأَضَافَتْ وَهِىَ تَضْحَكُ :

- الْحَقُّ أَنَّ وَالِدِى هُوَ الَّذِى قَدَّمَ لِى هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ !

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ كَلَامَهَا ، قَالَتْ :

- وَكَانَ مُقَدَّراً أَنْ يَمُوتَ « مُحَمَّدٌ » وَالِدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَهُوَ مَا يَزَالُ طِفْلاً ، فَرَعَتْهُ أُمُّهُ الصَّالِحَةُ وَرَاحَتْ تَبْذُلُ جُهْدَهَا لِتُهَيِّئَ لَهُ حَيَاةً هَادِئَةً حُلْوَةً . وَأَحَسَّ أَحْمَدُ مَا تَبْذُلُهُ أُمُّهُ فِى سَبِيلِ تَرْبِيَتِهِ فَطَلَبَ الْعِلْمَ فِى وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنْ عُمْرِهِ ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُتِمَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَهُوَ فِى سِنِّ الْعَاشِرَةِ . ثُمَّ حَرَصَ عَلَى أَنْ يَحْضُرَ مَجَالِسَ الْعُلَمَاءِ ، وَيَأْخُذَ عَنْهُمُ الْكَثِيرَ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . .

وَنَالَ عَلَى صِغَرِهِ إِعْجَابَ الْعُلَمَاءِ ، وَأَصْبَحَ مَثَلاً يَضْرِبُهُ

الْآبَاءُ مِنْ مَعَارِفِهِ لِأَبْنَائِهِمْ . . يَحُثُّونَهُمْ لِيَتَحَلَّوْا مِثْلَهُ بِالتَّقْوَى . . وَالصَّبْرِ . . وَالْجِدِّ . . وَإِتْقَانِ مَا يُكَلَّفُونَ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ . .

سَكَتَتْ عَلْيَاءُ لِتَرْجِعَ إِلَى مُذَكِّرَاتِهَا ، فَقَالَتْ وَالِدَةُ عَرَبِى وَقَدْ بَدَا عَلَيْهَا التَّأَثُّرُ :

– لَا شَكَّ فِى أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ فَخُورَةً بِهِ ، سَعِيدَةً بِسُلُوكِهِ وَتَقْدِيرِ النَّاسِ لَهُ . .

(٣)

اهتدت علياءُ إلى ما كانت تبحث عنه فى مذكراتها ، فرفعت رأسها تبتسم وتقول :

— كانت أم أحمد تشجعه دائماً وترشده ، وتكثر من الدعاءِ له . وكذلك كان هو يدعو لها كلما صلى ، ويقول : « اللهم إنى أسألك ثواباً من عندك لأمى جزاءَ ما قدمت لى ، وجزاءَ ما كافحت معى يارب العالمين . . » . .

وكان أحمد قد أقبل على العلم لا يشغله عنه شاغل ، وكلما عظم علمه زاد اقتناعه بحاجة الناس إلى العلم ليعيشوا حياة فاضلة جميلة . . وليتحضروا ويترقوا ! وجاءَ يوم كان عليه أن يختار واحداً من العلوم الدينية يتفرغ له ويتخصص فيه فاختار علم الحديث . . أى دراسة الأحاديث النبوية ، وما إن استقر رأيه على هذا الاختيار حتى بدأ نضاله الطويل من أجل التحصيل . .



بعدَ الصلاةِ يجلسُ الناسُ حوْلَ العُلماء

لَازَمَ الشَّابُّ الطَّمُوحُ عَالِماً مَعْرُوفاً مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ اسْمُهُ « هُشَيْم بن بَشِيرٍ الْوَاسِطِيُّ » ، فَلَمْ يَلْبَثْ ابْنُ بَشِيرٍ أَنْ لَمَسَ ذَكَاءَ ابْنِ حَنبلٍ الشَّدِيدَ . . وَثِقَتَهُ الْبَالِغَةَ بِنَفْسِهِ . . وَبَشَّرَهُ بِمُسْتَقْبَلٍ عَظِيمٍ !

وَمَضَتِ السَّنَوَاتُ وَهُوَ يَتَلَقَّى الْحَدِيثَ عَنِ ابْنِ هُشَيْمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ بَغْدَادَ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ ابْنُ هُشَيْمٍ حَزِنَ عَلَيْهِ حُزْناً شَدِيداً . . وَقَرَّرَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى مَدِينَةِ « الْبَصْرَةِ » . .

كَانَ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ فِي زَمَانِهِ يَنْتَشِرُونَ فِي أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَيْهِمْ وَيَتَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مَشَقَّةَ السَّفَرِ وَنَفَقَاتِهِ . وَذَاتَ يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ وَالثَّمَانِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ نَادَى أَحْمَدُ أُمَّهُ وَأَخْبَرَهَا بِعَزْمِهِ عَلَى الرَّحِيلِ ، وَعَقِبَ صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنَ الْيَوْمِ التَّالِي قَامَ يُوَدِّعُهَا . . وَفَتَحَ بَابَ الدَّارِ وَانْطَلَقَ إِلَى الْجَنُوبِ يَحْمِلُ حَقِيبَتَهُ عَلَى ظَهْرِهِ قَاصِداً الْبَصْرَةَ . .

وَبَعْدَ أَنِ الْتَقَى بِعُلَمَاءِ الْبَصْرَةِ وَنَهَلَ مِنْ عِلْمِهِمْ ، سَافَرَ إِلَى مَدِينَةِ « الْكُوفَةِ » . . ثُمَّ إِلَى بِلَادِ « الْيَمَنِ » . .

(٤)

نَظَرَت عَلْيَاءُ إِلَى أُمِّهَا تَبْتَسِمُ وَتَقُولُ :

– أَلَنْ نَذُوقَ شَيْئاً مِنَ الْحَلْوَى اللَّذِيذَةِ الَّتِى تَصْنَعِينَهَا يَا أُمِّى ؟ !

فَضَحِكَتْ أُمُّهَا وَقَامَتْ تُقَدِّمُ أَطْبَاقَ الْحَلْوَى لِلْجَمِيعِ ، وَتَتَحَدَّثُ عَنْ مُسَاعَدَةِ عَلْيَاءَ لَهَا فِى إِعْدَادِ الطَّعَامِ وَأَلْوَانِ الْحَلْوَى . .

وَفَرَغَتْ عَلْيَاءُ مِنْ تَنَاوُلِ الْحَلْوَى فَعَادَتْ تَسْتَرْشِدُ بِمُذَكِّرَاتِهَا وَتَقُولُ :

– سَافَرَ ابْنُ حَنْبَلٍ كَثِيراً يَجْمَعُ أَحَادِيثَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، وَإِلَى أَرْضِ « الْحِجَازِ » رَحَلَ خَمْسَ مَرَّاتٍ . . وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَحُجُّ بَيْتَ اللهِ فِى مَكَّةَ .

سَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ يَوْماً ، قَالَ :

– يَا أَحْمَدُ ، سَافَرْتَ فِى سَبِيلِ الْعِلْمِ طَوِيلاً وَحَفِظْتَ

الْكَثِيرَ مِنَ الْحديثِ وكَتَبْتَ الْكَثِيرَ . فَإِلى متى تظَلُّ هكذا مُسافِراً مِنْ مكَانٍ إِلَى آخر وإِلَى متى تظَلُّ تحْفَظُ وتكْتُب ؟

فَأَجَابَ الْإِمَامُ وعَلَى وَجْهِهِ سِماتُ الْعجبِ :

– يَا صَدِيقِي ، أتعتقِدُ أَنَّنِى عَلِمْتُ الْكَثِيرَ . . وجمعْتُ الْكَثِيرَ ؟

الْعِلْمُ لاَ نِهَايَةَ لَهُ ، وَسَأَظَلُّ أطْلُبُهُ إِلَى آخرِ حياتي !

وكَانَ دَقِيقاً فِي نَقْلِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ ، يَكْتُبُ كُلَّ ما يسْمعه مِنْها ولاَ يعْتَمِدُ على حِفْظِهِ لَها فقط . .

جَاءَهُ يوْماً رَجُلٌ يقُولُ :

– يَا أَحْمَدُ ، علِّمْنى مِمَّا علَّمَكَ الله . .

فَأَخْرَجَ أَحْمدُ كُتُبَهُ وجَعَلَ يقْرَأُ عَلَى الرَّجُلِ والرَّجُلُ يَكْتُبُ ، حَتَّى إِذَا ما انْتَهى مِنَ الْإِمْلاَءِ قَالَ لِلرَّجُلِ :

– اقْرَأْ ما كَتَبْتَ . .

سَأَلَ الرَّجُلُ :

– وَلِماذَا أَيُّهَا الْإِمَامُ

قَالَ ابْنُ حَنْبَلٍ :

– إِنَّهُ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ وَمِنْ وَاجِبنا أَنْ نُحَافِظَ عَلَيْهِ . .

وَمَضَتِ الْأَيَّامُ فَذَاعَتْ شُهْرَةُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ مَجْلِساً يَسْمَعُ فِيهِ أَسْئِلَةَ النَّاسِ وَيَشْرَحُ لَهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ . فَقَدْ كَانَ يَحْتَرِمُ شُيُوخَهُ الَّذِينَ عَلَّمُوهُ ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ مَا يَزَالُ يَقُومُ بِالتَّعْلِيمِ إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ . .

وَأَخِيراً جَلَسَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِأَكْبَرِ مَسْجِدٍ فِى بَغْدَادَ ، وَبَدَأَ يُقَدِّمُ عِلْمَهُ لِمَنْ يَطْلُبُهُ . وَاخْتَارَ وَقْتَ دَرْسِهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، لِيَكُونَ النَّاسُ قَدْ فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَقَضَوْا حَاجَاتِ بُيُوتِهِمْ . .

وَكَانَ يَحْضُرُ دُرُوسَهُ مَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُصَلِّينَ !

(٥)

قَالَتْ عَلْيَاءُ :

– أَحَبَّ النَّاسُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ لِعِلْمِهِ الْكَثِيرِ ، وَلِطِيبَتِهِ وَصَلَاحِهِ ، وَأَصْبَحَتْ لَهُ فِي نُفُوسِهِمْ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ ..

لَكِنَّ الْأَيَّامَ لَا تَصْفُو لِلْإِنْسَانِ دَائِماً ..

فَفِي عَهْدِ « الْمَأْمُونِ » ، سَابِعِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ ، نَشِبَتْ فِتْنَةٌ شَدِيدَةٌ أَصَابَتْ كَثِيراً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ بَيْنِهِمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ ..

كَانَ الْمَأْمُونُ يَقُولُ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مَخْلُوقٌ ، خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى كَمَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَكَمَا خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ . عَلَى حِينَ كَانَ الْفُقَهَاءُ الدَّارِسُونَ لِعُلُومِ الدِّينِ يُخَالِفُونَهُ فِي الرَّأْيِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ .. وَكَلَامُ اللهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى .. وَصِفَاتُهُ تَعَالَى قَدِيمَةٌ لَا أَوَّلَ لَهَا ..



دخل الإمامُ أحمدُ السِّجن

وعَرَفَ المأمونُ رأيَ العلماء ، لكنَّه لم يرجعْ عن فكرتِهِ وحاولَ أنْ يفرضَها على المسلمين بالتَّهديدِ والوعيد !

دعا المأمونُ العلماءَ فلمَّا اجتمعوا لديْهِ جعلَ يسألُهم الواحدَ بعدَ الآخرِ ، فأدركَ العلماءُ مِنْ لهجتِهِ وهيئتِهِ أنَّ مصيرهم السِّجْنُ إنْ هُمْ خالفُوهُ .. ووافقه بعضُهم على ما يقول طَلَباً للنَّجاة ..

وكانَ ابنُ حنْبلٍ مِنْ بيْنِ المدْعُوِّين فقال للمأمونِ :

– يا أمير المؤمنين ، اتَّقِ الله واتْرُكْ هذا الموضُوعَ ولا تُجادِلْنا فيه ..

أرادَ ابنُ حنبلٍ أنْ يكُفَّ أذى المأمُونِ عن العلماءِ جميعاً ، وأنْ يردَّه عنِ الخطأ إلى الصَّوابِ .. لكنَّ المأمونَ أصرَّ على موْقفِه وقال :

– لابُدَّ من أنْ تُعلِنَ رأيَك يابْن حنبلٍ ، ولابُدَّ مِنْ أنْ تُوافقني على رأيي !

عِنْدئذٍ ردَّ الإمامُ بشجاعةٍ تامَّةٍ ، قال :

- كلاَّ .. كلاَّ يا أمير المؤمنين ، أنا لن أقول إلاَّ ما أومن به ! القرآن كلام الله ، وهو قديمٌ لا أوّل له !

أشار المأمونُ إلى العلماء الّذين وافقوه على رأيه ، وقال :

- لقد سبقك هؤلاء وأيّدوا وجهة نظري ..

قال الإمام أحمدُ :

- هؤلاء يا أمير المؤمنين نطقت ألسنتهم بما ليس في قلوبهم ؛ خافوا أنْ تسجنهم فوافقوك على رأيك !

سأل المأمونُ متعجبا :

- وأنت .. أما تخافُ السِّجن ؟ !

وفي الحال ردَّ الإمامُ قائلاً :

- كلاَّ .. كلاَّ .. أنا لا أخافُ .. لأنّني على الحق ! والسِّجنُ أحبُّ إليَّ من أنْ أُعلن رأياً أعرفُ أنّه باطِل !

وهنا صاح المأمونُ يأمر رِجال الحرسِ الّذين يقفون حوله :

– خُذُوا ابْنَ حَنْبَلٍ إِلَى السِّجْنِ ، وَقَيِّدُوهُ حَتَّى لاَيَسْتَطِيعَ الْحَرَكَةَ . لاَ تُطْعِمُوهُ إِلاَّ رَدِيءَ الطَّعَامِ وَلاَ تَسْقُوهُ مَاءً بَارِدًا أَبَدًا ، وَاضْرِبُوهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ رَأْيِهِ وَيُوَافِقَ عَلَى رَأْيِنَا !

(٦)

قَالَ وَالِدُ عَلْيَاء :

– إنَّ موقفَ الإمامِ أحْمَدَ يعلِّمُنا كيْفَ تكُونُ الشَّجَاعةُ ، فَلَيس مِنَ الشَّجَاعةِ أنْ يعتدِى الإنْسانُ على غَيْرِهِ ضَعِيفاً كَانَ أَوْ قَوِيّاً .. الشَّجَاعةُ هِى إِقْدَامُ الإنْسانِ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ والدِّفَاعِ عنه وهو يعلم أنَّه معرضٌ لِلأَذَى أَوِ الْخسارة !

فَضَحِكَتْ عَلْيَاءُ وَهِىَ تنظُرُ إِلَى ابْنِ عمِّها عربى وَتَقُولُ :

– أَنَا شَخْصِياً عِنْدِى هذَا الإِقْدَام !

وَضَحِكَ الْجميع ..

ووصَلَتْ عَلْيَاءُ حَدِيثَها ، قَالَتْ :

– دخل الإمامُ أَحْمَدُ السِّجن ومكَثَ فِيهِ ثمانِيَةً وعِشْرين شَهْراً ، صامِداً لِضَربِ الْحرَّاسِ صَباحاً ومساءً .. يُغْمى عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ فَإِذَا ما أَفَاقَ كَرَّرَ رَفْضَهُ لِرَأْى الْمأْمون !

وأخيراً يئس المأمون من الحصول على تأييد ابن حنبل لرأيه ، فأخرجه من السجن ليحدد إقامته فى بيته لا يخرج إلى مجلسه فى المسجد ولا يعقد هذا المجلس فى بيته ! وفى هذه الوحدة التى فرضها عليه المأمون ألف الإمام أحمد كتابه « المسند » ؛ سماه المسند لأنه كان يسند كل حديث شريف فيه إلى رواة صالحين ..

وبلغ الإمام السابعة والستين من عمره ، وفى شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين من الهجرة توفى صاحب المسند . وكانت وفاته يوم جمعة ، فاحتشد لوداعه ثمانمائة ألف من أبناء بغداد .. مشوا فى جنازته ودموعهم تتساقط ..

وهكذا يقدر الناس المخلصين للعلم ، والشجعان !

وسكتت علياء فمضى بعض الوقت والجميع صامتون يتأملون ما سمعوه من أخبار الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ..

رقم الإيداع : ٨٢/٢٩٧٣

ترقيم دولى : ٧ - ٠٠٠٠ - ٠٨ - ٩٧٧ ISBN

